القائمون بأمر الدعوة بين الإبداع والابتداع

بقلم

الدكتور

فوزي عبد العظيم سلام قمر





بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين ، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته وتمسك بسنته إلى يوم الدين .

أما بعد . . .

فمما لا شك فيه أن الدعوة إلى الله — تعالى — فريضة شرعية ، وضرورة اجتماعية وذلك للأسباب الآتية :

أولا : الناس فى حاجة إلى من يبين لهم ما أنزل إليهم من ربهم،ليقيم الحجة عليهم ، وهذه من مهمات رسل الله — تعالى — إذ لاعقوبة دون نذارة ، وصدق الله إذ يقول : « لتنـــذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون»[1] ، ويقول : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا»[2] .

ثانياً : دنيانا التى نعيش فيها . فيها ما فيها من نوازع الشر والمطامع والأهواء، وأصحاب هذه الأهواء والمطامع يودون أن تشيع هذه الأهواء والضلالات فى المجتمع كله قال تعالى : « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء »[3] .

(١) سورة يس الآية : ٦

(٢) سورة الاسراء من الآية : ١٥

(٣) سورة النساء من الآية : ٨٩

ولذلك ترى هؤلاء يتعاونون « والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون »[1] ، فكان لابد أن يتعامل أهل الإيمان على الخير والفضيلة لتسود حتى لاتكون فتنة . ويكون الدين لله « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »[2] .

ثالثاً : الدعوة إلى الإسلام تعني عرض الإسلام كله ، وشرح كتاب جعله الله تبياناً لكل شيء ، قال تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين »[1] وتقريب نبوة جعلها الله ريادة إلى ميادين الكمال الإنساني كله ، قال تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »[2] . لذلك لزم الداعي أن يكون مستكمل العدة من جميع العلوم الشرعية والإنسانية ، والأدبية ، حتى يقدر على تحمل هذا العبء ، واجتياز الحروب الشاقة به .

رابعاً : إن الفتوى الجاهلة : والبدعة المحدثة . والحديث الموضوع ، والخرافة المقدسة ، كل ذلك لون من ألوان تزوير الوحي ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، والشهادة على الله بما لم يقل .

لهذه الأسباب وغيرها جاءت هذه الدراسة المتواضعة ، التي أنشد من خلالها ، بيان الطريق أمام القائمين بأمر الدعوة إلى الله — تعالى — كي

---

(١) سورة التوبة الآية : ٦٧
(٢) سورة التوبة من الآية : ٧١
(٣) سورة النحل من الآية : ٨٩
(٤) سورة الأحزاب : الآية : ٢١

يدعوا فى دعوتهم ، فيلبسوها ثوب الحكمة فى العرض ، وذلك بإظهار الحقائق الثابتة السليمة ، وأخذ العبر والدروس المستفادة من أقوال الفقهاء — فلكل مقام مقال ، ولكل وقت حال — تاركين الروايات الشاذة ، وأقوال المغرضين ، فالوقت قد آن فى اقصاء المفلسين فى حقل الدعوة ، الذين لا فقه لهم ، ونصبوا أنفسهم دعاة . . . . . ولكن بلا زاد . فضلوا الطريق ، ولو قاموا بعرض فطرة الله فى الأنفس ، وكشفوا عن طبيعة الوحى الأعلى فى مثل قوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط »[١] . لكان أقوى وأجدى فى التوصل إلى الحق ، وأراحوا أنفسهم .

وانطلاقا من هذا لابد وأن نبدأ دراستنا هذه من نقطة ثابتة لا يختلف فيها اثنان كى نكشف عن هذا المراد من هذه الدعوة الخاتمة ، أمام القائمين بأمرها ، ليكونوا على بينة « أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم »[٢]

فنقول وبالله التوفيق :

---

(١) سورة الحديد من الآية : ٢٥

(٢) سورة محمد الآية : ١٤

الرجوع إلى الفطرة ضرورة لمن قام بأمر الدعوة

بيان ذلك :

أن الإنسان بفطرته التى ولد بها . يدرك أن العدل حسن ، والظلم قبيح ، كما يدرك أن العلم مفخرة . والجهل عار .... ومع تجاوب الإنسان مع فطرته يمكنه إيجاد مجتمع قائم على قواعد وسمات أدنى إلى روح الدين ، أو أقرب إلى تعاليم الإسلام ، ذلك أن أساس الفطرة عقل سليم ، وقلب طاهر نقى .

وسلامة العقل توجب احترام الحقائق ، وإدراك الواقع دون نقص أو زيادة ، كما توجب رفض الأوهام ، والوقوف بالظنون عند حدودها فلا تتحول النظرية إلى يقين ، ولا الأوهام إلى حقائق ... ذلك بالنسبة إلى العقل .

أما بالنسبة إلى القلب وطهارته ، فإن الفطرة السليمة تعنى إنساناً لايعبد نفسه ، ولا يتبع هواه ، ولا يتحامل على الآخرين .. .. فلا معنى الحقد ، والافتراء ، وسوء الظن بالآخرين ، ومحاولة الصعود على أنقاض الأبرياء والخصوم .

فهى — أى الفطرة — إذا كالحق تماماً لايتغير ولا يتعدد ، لأنه خط مستقيم ، والخط المستقيم كما هو معلوم أقصر طريق بين نقطتين ، ومن ثم لايكون إلا واحداً ، أما مع فقدان الاستقامة واختلاف البداية والنهاية ، فإن الخطوط المائلة لاتحصر عداً ..

وبهذا فلا رشد ولا فلاح إلا فى التزام الصراط المستقيم ، من أجل ذلك قال الله — عز وجل — لنبيه — ﷺ — ولكل من تبعه

من المؤمنين الذين آثروا الفطرة السليمة : «منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون»(١) .

وليس معنى الفطرة أن الناس حين يولدون يخرجون من قالب واحد تصب فيه النطفة فتخرج الإنسان الذى يعرف أصول دينه من عقيدة أساسها التوحيد المطلق، وشريعة الهية مفصلة ، ومنهاج يسير عليه فى الحياة ولو كان الأمر كذلك ما كان هناك تكليف ، وما كانت هناك نبوة ، ولكن الأمر عكس ذلك ، فالإنسان حين يولد يكون مستعداً لهذه الفطرة مندفعاً فى مجراها تدافع السيل إلى مستقره ... لكن العوائق قد تحول بين الإنسان وبين فطرته ، هذه العوائق أساسها ومصدرها البيئات المنحرفة .

دعاة يشوهون ولايجملون ، يهدمون ولا يبنون :

لقد أشار النبى — ﷺ — إلى أخطار البيئات المنحرفة التى تحول بين الإنسان وفطرته فتلوى زمامها عن التوحيد الخالص ، وتسلك بها سبيل التجسيد والتثليث .. وهذا معلوم ومشاهد ، حيث نرى التدين الفاسد مولع بالتحريم ، راغب فى تضييق المباحات ، وهذا دأبه وديدنه ، كأنه يريد من خلال نغمته هذه إيجاد رجال يوافقون عقله وهواه ، وهذا ضرب من المحال مخالف للفطرة التى خلق الله الناس عليها ، فعن عياض المجاشعى أن رسول الله — ﷺ — قال ذات يوم فى خطبته ، ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ماجهلتم مما علمنى يومى هذا ، كل مال نحلته عبداً حلال ، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا ، وإن الله

(١) سورة الروم الآيتان : ٣١ ، ٣٢

نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال. إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك ، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان ، وإن الله أمرنى أن أحرق قريشاً ، فقلت رب إذا يثلغوا رأسى فيدعوه خبزة ، قال استخرجهم كما استخرجوك . واغزهم نغزك ، وأنفق فسننفق عليك ، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك ، قال وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى . ومسلم عفيف متعفف ذو عيال ، وقال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذى لا زبر له الذين هم فيكم تبعاً ، لا يبتغون أهلا ولا مالا ، والخائن الذى لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه ، ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك . وذكر البخل أو الكذب ، والشنظير الفحاش ، ولم يذكر أبو غسان فى حديثه وأنفق فسننفق عليك[1].

وقفة مع هذا النص النبوى :

أولا : ظاهر الحديث يدل على أن النبى — ﷺ — قد قاله بعد الهجرة. حينما تصدرت قريش مواكب المعاندين ، وأرصدت كل ما تملك للقضاء على الإسلام ونبيه . فأمر النبى — ﷺ — من ربه — جل وعلا — أن يجند نفسه لمواجهة هذا الضلال وأهله .

ثانيا : الحديث فيه دعوة صريحة لرفض الجهــل ، وكذلك النظرة الضيقة التى تعزل الدين عن الواقع ..... إنه يصنع حضارة فى كل أرجاء الحياة ، حضارة تتجدد وتتطور كلما تتابعت الأجيال ، وتطورت البيئات لا مجرد رسوم وتعابير هامدة تكرر نفسها دون جديد ... !!

(١) صحيح مسلم جـ ٨ ص ١٥٩ ك/ الجنة وصفة نعيمها ، ب/ الصفات التى يعرف فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار .

يدل على ذلك قوله — ﷺ — « ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ماجهلتم مما علمنى يومى هذا كل مال نحلته عبداً حلال ، هذا القول يتأكد من خلال قول الله — تعالى — « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً »(١) وقوله: « يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين »(٢)، لقد سد الباب إذاً أمام المولعين بالتحريم وضيق الخناق عليهم ، وبهذا فليس لأى أحد من البشر أن يحرم أو أن يشدد فى التحريم ، فالقاعدة الأصولية تقول :

الأصل فى الأشياء الإباحة .. وتكملتها ... ولا تحريم إلا بنص .

ومؤايداتها :

التحريم الدينى لا يكون إلا بنص قطعى ، والقرآن قد فصل لنا ماحرم علينا ، ولا مزيد من التحريم .....

والتحريم الدينى لا يعتبر من التشريعات العامة إلا إذا كان النص الوارد فى شأنه قطعيا وواردا مورد التكليف/ أى أن يكون قطعى الثبوت وقطعى الدلالة ...

فالإباحة قاعدة ... والتحريم استثناء .

والاستثناء لا يتوسع فيه ولا يقاس عليه(٣) .

ثالثاً : إن القرآن الكريم ليضع التوسع فى التحريم ، جنباً إلى جنبه مع الشرك بالله — تعالى — يقول سبحانه حاكيا لحال المشركين « سيقول

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٩

(٢) سورة البقرة الآية : ١٦٨

(٣) انظر : الأصل هو الإباحة — إبراهيم بغير التنزيل ص ١٥

الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء »(١)
«وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء. كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين »(٢).

والحديث الذي بين أيدينا يوضح هذا المفهوم ويجليه، فقد جاء بعضه نبوياً، وبعضه قدسيا، وفيه يقول — ﷺ — عن رب العزة سبحانه « وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ... وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ... » . وفي هذا إشارة إلى الضلال الذي أطبق أهل الأرض جميعهم قبل بعثة النبي — ﷺ — حيث لم ينج منه إلا الأقلون، لقد طمست الفطرة، واختنق وهجها تحت ركام من الضلالات والكهانات التي نشرتها الجاهلية السائدة في العالم.

وعودة بالناس إلى دين الفطرة، يقول الله — تعالى — لنبيه — ﷺ — « إنما بعثتك لأبتليك، وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظان » .

وفي هذا إشارة إلى خلود القرآن الكريم، وبقائه، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومواجهته، وغلبته عوامل المحو التي أضاعت بالكتب الإلهية السابقة، حيث تطرق إليها الغش، والمحو، فطمست ولم يبق منها إلا سيرتها الأولى، وما جاء به القرآن الكريم ...

أما القرآن فقد تم حفظه بعوامل غالبت الزمن، فلم يوكل حفظه إلى

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٤٨
(٢) سورة النحل الآية : ٣٥

فئة من البشر ، أو إلى طائفة من الخلق ، بل تكفل الله — تعالى — بحفظه، حيث يسر حفظه ، فاستوعبته الصدور ، فهو يقرأ في كل زمان ومكان ، لا يمحوه من القلوب شيء : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[١] ، « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »[٢] .

وفي ذلك دلالة واضحة على استمرارية حفظه من جيل إلى جيل واتصال ذلك بالنبي — ﷺ — الذي تلقاه عن ربه — جل وعلا — بواسطة جبريل — عليه السلام ، بهذه العملية يكون التالي لكتاب الله — تعالى — والحافظ له ، آخذا عن الله — عز وجل — لاتصاله بالسند ، وهذا عمل لم يتوفر لأي كتاب إلهي سابق ، ودليل قائم على استمرارية هذه الرسالة ، وبقائها على مر الدهور والأزمان في شتى بقاع المعمورة . . .

رابعاً : لا غرابة إن رأيت أن المواجهة لصاحب هذه الرسالة ، ومن آمن به شديدة قوية ، فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، كما أن العصمة لا تمنع المحنة .

لقد أنكر من سمع بهذه العقيدة — عقيدة التوحيد — فرأينا معاداة صاحبها حينما أمر بالإفصاح عنها ، والتحدث بها ، وعملوا على إطفاء نورها ، وهذا ما أظهره قول الله تعالى : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين »[٣] ، « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »[٤] .

---

(١) سورة الحجر الآية : ٩

(٢) سورة القمر الآية : ١٧

(٣) سورة القلم الآيتان : ٥١ ، ٥٢

(٤) سورة التوبة الآيتان : ٣٢ ، ٣٣

ولنسمع إلى هذا الحوار الوارد في الحديث الذي بين أيدينا ، حيث يقول — ﷺ — « وإن الله أمرني أن أحرق قريشا ، فقلت : رب إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة — أي يكسروه كالخبزة ، وهو الرغيف المهشوم — ، قال : استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك — أي نقويك ونعنك عليهم وننصرك — وانفق فسننفق عليك ، وابعث جيشا نبعث خمسة مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك » . وهذا أمر بمواجهة الأعداء ، وإسماعهم مايكرهونه ، هذه المواجهه لاتعني حد السيف ، وتحريق البيوت وقتالهم ، حيث لم يؤمر بقتال بعد ، بل تعني البلاغ عن الله بأمر الدعوة ، والعمل على نشرها ...

خامساً : يمضي بنا الحديث فيصف لنا ذوي الفطرة السليمة ، التي لم يخالطها باطل ، أو غرض خسيس يخرجها عن نقائها ، فيقول — ﷺ — « وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجـل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال » ، وقال : « وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له — أي لا عقل له ، يعني السفهاء الرعاع — الذين هم فيكم تبعا لا يبتغون أهلا ولا مالا — يعني أصحاب الفراغ البدني والنفسي ، الذين استهلكتهم البطالة ، فلا يسعون لدنيا أو دين — ، والخائن الذي لا يخفى له طمع ، وإن دق إلا خانه » ، وهذه هي صفة النوع الثاني من أهل النار ، ناس لا تشغلهم أمانة ، ولا تقفهم حدود ، لا ترعبهم مسؤلية ، فهم يلتهمون ما يصل إلى أيديهم من حقوق الآخرين ، وقريب من ذلك النوع الثالث الذي يصفه الرسول — ﷺ — بقوله : « ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك » .

أما الصنف الرابع : فقد تردد الراوي فيه بين البخلاء والكذبة ، وكلاهما شر من صاحبه . الخامس : الفحاش يعني الشاذ في قوله ، وفعله ، الذي لا خلق عنده ولا خلاق بذيء اللسان سيء الأفعال ...

من هذا نعلم : أن أصحاب النار قوم غلبت عليهم الآفات النفسية ، فسلبتهم كل خلق سوى يتماشى مع الفطرة السليمة ... وبدراسة الإسلام دراسة واعية ، نجد أول ما يقابلنا من الأمور البدهية التي لا يختلف فيها إثنان موافقته للفطرة الإنسانية ، ومسايرته لها ، حيث عمد إلى الركنين الأساسين لها وهما : الفكر الحصيف ، والقلب السليم .

ذلك أن حصافة الفكر ، ونضج العقل ، ينتج عنه الإدراك الفقهى الواسع المستنبط من أقوال المعصوم — ﷺ — الذى غفل عنه كثير من الخلق ، فشوهوا الفطرة السوية من خلال ركنها الأول ، الذى يقول فيه — ﷺ — « تعلموا العلم قبل أن يرفع ، فإن أحدكم لايدرى مايفتقر إلى ما عنده ، وعليكم بالعلم ، وإياكم والتنطع والتبدع والتعمق وعليكم بالعتيق »[1] ، ويقول : «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»[2] ويقول : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين »[3] . فكم من أساء إلى الإسلام ، فبدل أن يهدى إليه ، صد عنه . وجر عليه المتاعب بقصور فقهه ، وقلة بصيرته ، وإن كان من المخلصين .

وكم من رجل حسن المعرفة ، واسع الخبرة فى مجال الدعوة ، ذكى الفهم ، لكنه ذو هوى ورغبة فى فرض ذاته ، وإظهار مكانته بين الناس ، فتراه يعمل لذلك بقوة على حساب دينه ، ومصلحة جماعته ومستقبلها .

لهذا ولغيره قيض الله لهذا الدين أناسا فرغهم لخدمته ، واستعملهم له ،

---

(١) رواه الديلمى عن ابن مسعود — رضى الله عنه — (الجامع الكبير — السيوطى — جـ٣ ص٦١٢)

(٢) رواه الترمذى وابن ماجة عن ابن عباس

(٣) رواه الإمام أحمد ، والترمذى عن ابن عباس ، وابن ماجة عن أبى هريرة

وأغناهم عن الناس ، وأعطاهم القوة فى الفهم والحفظ ، فكانوا أداة حفظ صحيحة لهذا الدين القويم . فلم يبيعوا دنياهم بدينهم ولا بدنيا غيرهم ، ولم يتكسبوا بالعلم ، ولم يجروا وراء الدرهم والدينار ، حفظوا جيـداً قول الرسول — ﷺ — أنزل الله فى بعض الكتب (أو أوحى إلى بعض الأنبياء) :

« قل للذين يتفقهون لغير الدين ، ويتعلمون لغير العمل ، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، يلبسون للناس مسوك الكباش ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، وألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصـبر ، إياى يخادعون ؟ وبى يستهزئون ! لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيرانا »[1].

هلاك المرء إعجابه بنفسه :

يقول ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه : « أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا عنها ، لأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه فأى علم لعالم يرضى عن نفسه ؟ وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه »[2].

ويقول أيضاً : « الناس يمدحونك لما يظنونه فيك ، فكن أنت ذاما لنفسك لما تعلمه منها »[3].

---

(١) رواه ابن عبد البر فى كتابه « بيان العلم وفضله » ص ٢٢٩

(٢) أنظر شرح ذلك فى الجانب العاطفى من الإسلام — الشيخ محمد الغزالى — ص ١٣٨ ، الحكم ب ٣ ص ٦٩ زروق

(٣) المصدر السابق ص ١٦١ ، الحكم ب ١٥ ص ١٣٩

ويقول ابن الجوزى فى ذلك : « المصيبة العظمى رضى الإنسان عن نفسه ، وإقتناعه بعلمه ، وهذه محنة قد عمت أكثر الخلق ... فترى كل ذى هوى يثبت عليه، إما لأنه مذهب أبيه وأهله ، أو لأنه نظر نظرا أول فرآه صوابا ، ولم ينظر فيما يناقضه ، ولم يباحث العلماء ليبينوا له خطأه ، ومن هذا حال الخوارج على أمير المؤمنين — على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فإنهم استحسنوا ما وقع لهم ولم يرجعوا إلى من يعلم .

ولما لقيهم عبد الله بن عباس — رضى عنهما — فبين لهم خطأهم رجع عن مذهبه منهم ألفان ومن لم يرجع عن دواء ابن ملجم ، فرأى مذهبه هو الحق ، فاستحل قتل أمير المؤمنين — رضى الله عنه — ورآه دينا ، حتى أنه لما قطعت أعضاؤه لم يمانع ،فلما طلب لسانه ليقطع انزعج وقال: كيف أبقى ساعة فى الدنيا لا أذكر الله ... »

ومثل هذا ماله دواء[1] . لقد انحرف بذلك عن مسلك الفطرة ، التى جبل عليها وابتدع لنفسه ولمن أتبعه دينا أعتقده، وولاية إدعاها، وعلما ناقصا أفتى به ... لقد تحجر فى مكانه ، وأغلق الباب على نفسه ، وادعى الكمال لها ، ... ، فاستخف بغيره وانتقصه ، ولم يسمع منه ، مثل هذا ماله دواء، إنه شر خلق الله على الأرض ، « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون »[2] .

---

(١) صيد الخاطر — ابن الجوزى — ص ٤٥٧ ، ٤٥٨

(٢) سورة الأنفال الآيتان : ٢٢ ، ٢٣

نبوة كاذبة ، وولاية مردودة ، وعلم مضل :

إن الحق لا يشتبه بباطل ... لكن قد يموه بالباطل عند من لا فهم له.

وهذا ظاهر فى حق من يدعى النبوات ، وفى حق من يدعى الكرامات ، وفى حق من يدعى العلم والمعرفة .

فالحق وإن كان واضحا ومعلوما ، لكنه لا يعرف إلا من ضده : وقديما قيل : بالأضداد تتمايز الأشياء ... ولا يفطن ذلك إلا كل لبيب صبور ، يطلب الحق ويترصد له من العدو قبل الصديق ، ومن الصغير قبل الكبير ، فالحكمة ضالة المؤمن إن وجدها فهو أحق بها .

والأحداث خير شاهد على ما نقول .

لقد شهد القرن الأول من الدعوة الإسلامية أمثال هذه الادعاءات ، خاصة بعد وفاة النبى — ﷺ — فقد بدت الفرصة ممكنة . . . سواء لمن دخلوا فى الإسلام وهم يبطنون غير ما يظهرون ، أو لم يدخلوا فى الإسلام — أصلا — وتمنوا أن يقاوموه — لكنهم وجدوا أن المقاومة المسلحة — وحدها — لا تكفى لمنع هذا الدين من الإنتشار . . . فكان منهم أن أدعى بعضهم النبوة ، من هؤلاء (مسيلمة الكذاب) فى بنى حنيفة باليمامة .. و(الأسود العنسى) فى اليمن ... و(طليحة بن خويلد) فى قبيلة أسد ... ، وقد ظهرت فى بنى تغلب امرأة أدعت النبوة تدعى (سجاح بنت الحارث بن سويد) . .

الكذاب لا يفضحه إلا كذاب مثله :

لقد ادعت (سجاح التميمية) النبوة بعد وفاة رسول الله — ﷺ — واجتمع عليها بنو تميم لنصرتها ، وكان فيما أدعت أنه نزل عليها :

«أيها المؤمنون المتقون ، لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم يبغون»، وكان ممن اجتمع إليها الأحنف بن قيس ، وحارثة ابن بدر، ووجوه بني تميم ، وكان مؤذنها شبيب بن ربعى الرياحي ، فصمدت في جيشها إلى مسيلمة الكذاب وهو باليمامة ، فقالت : يامعشر بني تميم ، اقصدوا اليمامة ، فاضربوا فيها كل هامة ، واضربوا فيها ناراً ملهامة ، حتى تتركوها سوداء كالحمامة » . وبلغ مسيلمة خروجها ، فضاق به ذرعا ، وتحصن في حجر (حصن باليمامة) . وأرسل إلى وجوه قومه يسألهم ماذا يفعل ؟ فأجابوه بأن يسلم هذا الأمر إليها .

وكان مسيلمة داهية يعرف حالها ، فأرسل إليها قائلا : «إن الله تبارك وتعالى أنزل عليك وحيا ، وأنزل علي وحيا ، فهلمى نجتمع فنتدارس ما نزل علينا ، فمن عرف الحق يتبعه، واجتمعنا فأكلنا العرب أكلا بقومى وقومك .

فبعثت إليه افعل ، فأمر بقبة أدم فضربت ، وأمر بعود فبخر فيها ، وقال أكثروا من الطيب فإن المـــرأة إذا شمت الطيب ذكرت الباه ، ففعلوا ذلك .

وحلت اللحظة الحاسمة، واجتمع الكذابان... ودارت بينهما المناقشات وطال الحديث بين الاثنين... وإذ بها — في النهاية — وقد ظهر كل منهما على حقيقته ... فرأى «مسيلمة» «سجاح» بعين الرجل ، ورأت «سجاح» «مسيلمة» بعين المرأة ، وقبلت الزواج منه كما لم يتوقع أحد !! فافتضحت عند العقلاء من أصحابها فقال منهم عطاء بن حاجب :

أضحت نبيتنا أنثى يطاف بها
وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

فلعنة الله رب الناس كلهم
على سجاح ومن بالإفك أغوانا

أعني مسيلمة الكذاب لا سقيت
أصداؤه من رعيث حيثما كانا[1]

عند هذا الحد وضعت «سجاح» نهاية لأكاذيبها... أما «مسيلمة» فكان له شأن آخر، فقد أعد أبو بكر — رضى الله عنه — وكان خليفة المسلمين الجيوش لمحاربة المرتدين عن الدين، ومنهم هــؤلاء الذين يتبعون أدعياء النبوة.

وقاد خالد بن الوليد الجيش الذى التقى بمسيلمة وجنوده... فى معركة اليمامة، وفيها قتل مسيلمة، ومن قبله مالك بن نويرة، ولم يبق على قيد الحياة غير «سجاح» التى أسلمت أخيراً، وبالرغم من موت «سجاح التميمية» وغيرها من مدعى النبوة، فإن مسيلمة مازال موجودا. وويل للمسلمين من فتواه ودهائه وحيله... فعن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله — ﷺ — يقول: «إن بين يدى الساعة كذابين، وزاد فى حديث أبى الأحوص قال: فقلت له أنت سمعت هذا من رسول الله — ﷺ — قال نعم»[2]، وعن أبى هريرة عن النبى — ﷺ — قال: «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثــلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله»[3].

---

(١) انظر الأغانى — الأصفهانى — جـ١٨ ص١٦٥، ١٦٧، مختار الأغانى ابن منظور جـ٤ ص ٢٩٧، ٢٩٨

(٢) صحيح مسلم جـ٨ ص ١٨٩ ك/ الفتن، ب/ لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل

(٣) المصدر السابق — نفس الصفحة —

التدين المغشوش :

الحكمة من العبادات التى فرضها الله — تعالى — على الناس، أنها تزكى سرائرهم ، وتقيم العلل الباطنة والظاهرة ، وتعصم السلوك الانسانى من العوج والانحراف ، وهذا لا يتحقق إلا إذا تجاوز العابدون الصورة الظاهرة للعبادة إلى صورتها الحقيقية ، فسجدت ضمائرهم وخواطرهم عند ما سجدت جوارحهم ، وتحركت أنفس ما فى كيانهم — القلب واللب — عندما تحركت ألسنتهم .

أما إذا وقف الانسان فى عبادته عند القشور الظاهرة ، والسطوح المزورة ، فإنه لا يزداد إلا كدا ، ولا يجنى إلا ألما ويكون بذلك مخالفا لحقيقة الفطرة التى جبل عليها وخاطبه الإسلام وكلفه من خلالها ، وفى مثل هذا الصنف يقول الله تعالى : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »[١] ويقول سبحانه: «ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين »[٢] ، إنهم بذلك الاتجاه أعداء نبوة ورسالة ، وتلك طبائع بعض الناس التى تحول الدين من وجهته الحقة ، إلى وجهتها هى... لقد نبه القرآن الكريم إلى خطورة هذا الاتجاه فى صورة الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، فجعلوا الدين كهانة تفسد الفطرة ، وتصطاديها المنفعة ، فقال سبحانه: «يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله»[٣] .

---

(١) سورة الكهف الآيتان : ١٠٣، ١٠٤

(٢) سورة الحج الآية ١١

(٣) سورة التوبة من الآية ٣٤

ذلك أن الانحراف العقائدى، والعوج الفقهى، ما هو إلا ثمرة من ثمرات التدين المغشوش، الذى أشار إليه المولى — سبحانه — بقوله: «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون»[1]، وقوله: «ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا»[2]، فالدين وحدة واحدة — عقيدة، وشريعة، ومنهاج حياة بين الفرد والجماعة — لا يعرف التجزؤ والتفرق. قال تعالى: «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة»[3].

وقال سبحانه: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»[4].

إن هذا التفرق والانحراف الناشىء بين الأفراد والجماعات، إنما جاء نتيجة قصور فى الادراك العقلى، وعدم إلمام بالخلاف الفقهى، الذى لا يوهى بين المؤمنين أخوة، ولا يحدث وقيعة، والخلاف إذا نشب إنما يكون لأسباب وجيهة، وإبداع عقلى مضبوط بالكتاب والسنة، لكن هؤلاء تكمن وراء خلافاتهم علل تستحق الكشف...

ذلك أنهم قوم يتمنون وقوع الخطأ من الناس، حتى إذا زلت أقدامهم وثبوا على المخطىء، وظاهر أمرهم الغضب لحدود الله — تعالى — أما باطنهم فالتنفيس عن رغبات الوحش المفترس الكامن فى دمائهم، يريد أن ينهش المارة، ويمزق أديمهم...

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٩

(٢) سورة الروم من الآيتين ٣١، ٣٢

(٣) سورة البينة الآية ٦

(٤) سورة الشورى من الآية ١٣